بمناسبة تعديل المناهج في سورية

أسلوب جديد في التعليم

[مهداة إلى إمام المربين سامح بك الحصري]

للأستاذ علي الطنطاوي

لي أخ كان كلما غشي المدرسة الثانوية رق جسمه ونحل وعراه ذبول ، فأعفيته منها وأبقيته في الدار سنوات ثلاثا لم ألزمه فيها مطالعة شيء من دروس المدرسة ، وإنما كنت أدله على بعض كتب الأدب والتاريخ مما لا يثقل عليه ولا ينال من صحته ، وما تجزل فائدته وتعظم النفعة به ، فقرأ فيها قرأ تاريخ الطبري كله والأغاني ... فلما أزف موعد امتحان الكفاءة منذ سنتين قلت له : لو دخلت هذا الامتحان مع رفاقك فلعل الله يكتب لك النجاح . فأطاعني واستعد للامتحان شهراً واحداً ثم دخله فكان من الناجحين ، على رغم أن الناجحين في تلك السنة كانوا دون الثلث ، وعاد إلى مثل ما كان عليه ، حتى كان امتحان الشهادة الثانوية (البكالوريا) هذه السنة ، فدخله كما دخل الأول ونجح فيه أيضاً ...

هذا النجاح الغريب دفعني إلى التفكير في الموضوع الذي أكتبه اليوم ، وجعلني أسائل نفسي فأطيل سؤالها : ألا يمكن أن نسهل للطلاب هذه الدراسة ؟ وإذا كانت هذه الغاية وهي شهادة الكفاءة (والصحيح أن تسمى شهادة الكفاية) تدرك بمسيرة شهر واحد في طريق سهل لاحب ، فلماذا نمشي إليها ثلاث سنين في طرق صعبة موحشة من ينقطع فيها أكثر ممن يبلغ آخرها ؟ أليس لنا بدّ من أن نضيع زهرة شباب أبنائنا في المدرسة لتعلمهم ما لا يكاد ينفعهم في حياتهم ، إذا هم خرجوا منها ، ولم يقدروا أن يشتغلوا بعده بما يشتغل به العامي الجاهل من أعمال اليد ، وأشغال السوق ؟ ألا يمكن أن نعلم كل طالب ما ينتفع به ويميل إليه ونعفيه من علوم يكرهها ولا يعتقد فائدتها له في حياته ؟

والجنسية ، فوضعنا برشحنا أن نكون الحكم بين الجميع ، لأننا نرضى الجميع إذ أننا خليط من الجميع .

ونحن أمة الوسط في الفكر . وهذا يستلزم بسطاً في الحديث لا تفي به هذه العجالة . ولكننا نجتزىء بطرف منه : وأعني بالفكر جميع القوى العليا في العقل والروح . وقد ورثنا ذلك من كثرة التجارب والأحداث والحضارات الروحية والمادية التي مرت بنا ، ففي مهود بلادنا وعلى ضفاف أنهارنا قامت أول الحضارات المادية وما زالت تقوم وتدول وتنتقل على هذه الرقعة التي تسمى اليوم الشرق الأوسط . حتى انتقلت إلى الغرب على يد اليونان والرومان في حضارتهم الأولى ، ثم جاء عهد النهضة الأوربية بالحضارة الحالية وهي الحضارة الثانية فقط لهذه البقاع . والأولى هي حضارة الدولة الرومانية التي قامت على أسس عسكرية عنيفة ولم تتصل بالروح إلا بعد أن أخذت بـ « المسيحية » وهي وليدة الشرق أيضاً .

وعلى قمم جبالنا تعلقت قلوب أجدادنا بالسماء وبكت لله وأدركت وحدته واتصلت بها رسالات وحيه فأتت بالخير والبر والتفاؤل والاطمئنان والسمو بالانسان وكانت للانسانية بمثابة الأمومة المربية المسددة المرشدة .

وفي صحفنا كتب أول السطور بالقلم الهيروغليفي ثم الفينيقي الذي ابتدأ به التاريخ البشري والفكر العظيم والجهد العنيف بدون ويسجل ويختزل في تلك « القماقم » السحرية الصغيرة الحروف والكلمات ، فينتقل بذلك الفكر الإنساني إلى المرحلة الكبرى التي ترجم بها كلمات الله في الطبيعة ، وبنى على أسسها علومه وآدابه إلى ما شاء الله أن يبني .

فإذا كان حاضرنا سيئاً بفعل الجهالة والجمود وعدم إدراك رسالتنا بعد أن تقسمت الغرب دول غريبة عن العربية ، فإن ماضينا يبعث فينا الثقة بأنفسنا وبما فيها من استعدادات كامنة .

وإن مستقبلنا ينادينا أن نهض لوصل الماضي بالحاضر بالمستقبل حتى نؤدي دورنا المنتظر من الأمة الوسط التي ترضى حكمها في الأطراف التي فيها دائماً الغلو والإسراف .

عبد المنعم خلاف

فقالت النفس : لقد أقمت بناءك على غير أساس ، وجعلت من هذه الشاذة قاعدة ، وأصّلت عليها أصلا . إن أخاك هذا وإن أخذ الشهادة فليس له علم من درس يوماً بيوم ، وسار على الجادة خطوة فخطوة ، ولم يقفز من فوق الأسطحة ولم يتسور الجدران ، وهذه العلوم كلها لازمة لا استغناء عنها ، وأسلوب التعليم صالح لا داعي لتبديله .

فرجعتني والله إلى الشك وكدت أدع الموضوع . ثم فكرت فرأيت أن لكل عمل نتيجة ، ولكل مسير غاية ، والغاية من المدرسة إما أن تكون الشهادة أو العلم أو الإعداد لخوض لجّة الحياة والنضال عليها . أما الشهادة فلا بحث فيها لأنها عرض لا جوهر ، ووسيلة إلى غيرها لا يصح الوقوف عليها ، ولا القناعة بها ؛ وهي بعد كاسمها (شهادة) قد تكون زكاة عادلة ، وقد تكون شهادة زور تعطى لغير أهلها ، وتمنح من ليس من مستحقيها . وما ينفع الفقير المفلس أن يشهد له الناس جميعاً بأنه غني ذو القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ أما العلم فاسألوا المتعلمين ماذا بقي لهم من دروس الثانوية ، بل تعالوا أحدثكم بما جربته بنفسي وما شاهدت عليه تلاميذي ، ولقد كنت في مدارسي الثانوية مجلّياً دائماً أو مصلّياً ، ولم أكن فسكلا[1] ، ولقد اشتغلت بالتعليم الأولي والابتدائي والثانوي ، الأهلي والرسمي والديني ، أربع عشرة سنة ، قبل أن ألي القضاء ، في مدارس الشام والعراق ولبنان ، وعرفت الآلاف من الطلاب . وأقل ما أستفيده من هذا أني إذا تكلمت أتكلم عن خبرة واطلاع . أقول : إني وجدت بالتجربة أنه لم يبق عندي الآن مما أمضيت في تعلمه السنين الطوال ، إلا ما كان طبي منصرفاً إليه من علوم الدين واللسان والتاريخ والفلسفة ، وما عدا ذلك من العلوم الرياضية والطبيعية (لا الطَبَعية كما يقول بعضهم ...) فلا أكاد أعرف منه الآن إلا أشياء عامة جداً . أما التفاصيل والدقائق وأعيان المسائل فقد نسيتها كلها . ولو سئلت عما أعرفه من المثلثات (مثلا) لأجبت صادقاً أني لا أعرف إلا شيئاً اسمه الجيب والتجيب (تمام الجيب) والمماس . لا أعرف ما هو على التحقيق ، حتى موضوع العلم على وجه التحديد فقد نسيته ، مع أن علامتي في السنة التي قرأنا فيها المثلثات كانت تسعاً من عشر وكنت المجلّي (الأول) في صفّي (أي فصلي) أما الكيمياء العضوية فلا أعرف منها إلا أن فيها شيئاً اسمه (الميتان) وتركيبه جزء من الفحم وأربعة من مولد الماء أي الهيدروجين — وقد درست جغرافية بلاد الدنيا الطبيعية والسياسية والاقتصادية ، وكنت مع ذلك كلما سمعت باسم مدينة جديدة يأتي في أخبار الحرب أجدني أجهل مكانها ، وأذهب فأسأل عنها الكتب والصورات ، أستوي في ذلك أنا ومن لم يقرأ الجغرافية قط[1] . وكل من عرفت من الطلاب هذه حالهم لا يستقرّ في رؤوسهم إلا ما يختصون به أنفسهم ، وإخلاصات موجزة ، أفما كان خيراً لهم لو أقرأناهم هذه الخلاصات من الأصل ؟

واست أقول ، دعوا هذه العلوم لا تقرئوها التلاميذ ، ولكن أقول إن هذا الخلط بين العلوم الكثيرة يؤدي إلى إضاعتها كلها ، وهذا سرّ مانشكوه من ضعف الطلاب في مصر والشام والعراق في اللغة وهي أداة العلم كله ، وما نلمسه من عقم القرائح ، وفقد المخترع والباحث . ولو أنا رجعنا إلى طريقة أجدادنا الذين كانوا يتعلمون علمين أو ثلاثة فإذا أحسنوها شرعوا بغيرها لكان أجدى علينا . فمدارسنا إذاً لا توصل إلى الغاية العلمية النظرية ، فلننظر إلى الغاية العملية هل تبلغنا إياها ؟ هل تعد مدارسنا التلاميذ إعداداً جيداً للنجاح في الحياة ، وضمان الكسب الطيب والعيش الرغد ، مع الخلق القويم والإيمان الديني والقومي ؟ الجواب مشاهد ملموس هو أن مدارسنا لا (تكاد) تخرج اليوم إلا أطباء أو محامين أو موظفين . أما الوظائف فعددها محدود لا يمكن أن يتسع لكل المتعلمين ولا ينبغي أن يتسع لهم . أما الأطباء والمحامون في دمشق فقد صاروا من الآن أكثر من اللازم بكثير ، وغدا جلّهم يقتنع بالكسب القليل . أما التجارة والزراعة وسائر طرق الرزق فإن أكثر أهلها أو كلهم ... ممن لم تخرجهم المدارس بل خرّجوا أنفسهم في مدرسة الحياة الكبرى ، ولا نستطيع أن نَتْلُوَ فنقول بأن خريجي المدارس يمتازون من الناس بأخلاقهم الشخصية والاجتماعية ، أو أن المدارس جعلتهم طبقة مختارة ممتازة

(١) هو آخر خيول السباق .

(١) والأب أنستاس الكرملي يرى أن تسمي الجغرافية علم (التفريع) من قولهم فرع الأرض .

من طبقات الشعب بل إنهم كغيرهم من الناس ، منهم الصالح ومنهم الفاسد ومنهم من هو بين ذلك !

والسبب فى هذا كله أن نظام التعليم فى بلادنا كالبيت العتيق الخرب ، المختل الهندسة ، الذى لا يفتأ أصحابه يتعهدونه بالترميم والإصلاح ولكنهم لا يجرؤون على هدمه من أساسه وبنائه من جديد على هندسة صالحة ، ونمط صحى نافع . إننا نحبس التلاميذ ست سنين للدراسة الثانوية ، ونحشو رؤوسهم بمعلومات أكثرها لاينفع فى الحياة . وماذا لعمرى استفدت أنا من دراسة المثلثات والهندسة النظرية و (حفظ) معادلات الكيمياء وقوانين الفيزياء فى القضاء أو فى تدريس الأدب أو فى فن الكتابة ، وتلك هى أعمالى فى حياتى ؟ سيقول قائل ، ومن كان يدرى أنك ستكون أديباً أو قاضياً ، أفما كان فى الإمكان أن تكون مهندساً أو صيدلياً ؟ بلى ، ولكن الدراسة العالية حددت طريق فى الحياة ، فلماذا لم أحدده قبل ذلك بسنوات ؟

هذه هى المسألة ، كما يقول شكسبير . إن الدراسة العالية هى المقصودة بالذات ، وما قبلها ثقافة عامة هى بمكان المقدمة إليها والتمهيد لها ، أفلا يستطيع الشاب الراغى دراسة الحقوق مثلا ، من غير إحاطة بدقائق الكيمياء والفيزياء والرياضيات ؟ أو لايجزئه ويكفيه أن يعرف عنها الشىء المجمل المختصر ؟ وطالب الطب هل يستحيل عليه تحصيله من غير معرفته بعلل الشعر واختلافات الكوفيين والبصريين ؟ لقد شاهدنا محامين بارعين وقضاة لا يعرفون شيئاً من المشتقات ولا تحول التابع ولاصفات البروم ، وشاهدنا أطباء كباراً استطاعوا أن يعملوا عمليات فى شق البطن وفتح الجمجمة ، على جهلهم الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وشروط عمل اسم الفاعل .

* * *

فما العمل ؟ أنا أرى ، إذا كان فى الدنيا من يسمع رأيى ، أن نجعل مدة الدراسة الابتدائية والثانوية معاً سبع سنين على الأكثر يتمكن فيها الطالب من العربية بالمران والتطبيق وتنبيه السليقة لا بحشو رأسه بالقواعد وقتل وقته بمعرفة أوجه الإعراب حتى يقيم لسانه ويتنزه عن الخطأ الفاحش ، ويبصر مرامى الكلام ودقائق معانيه ، ويتعلم من دينه ما يمسك عليه إيمانه وخلقه ويرغبه فى الخير ويصرفه عن الشر ، ويعنمه الحرام ؛ ويعرف من الرياضيات الشىء العملى الذى لا يستغنى عنه من غير اشتغال بالنظريات المجردة ، وما لابد من معرفته من علوم الطبيعة وقوانينها الأساسية وأسرار المخترعات ، وأن يدرس الصحة والجغرافية والتاريخ العربى[1] وأن يعرف مبادىء لغة من اللغات الغربية وأمثال ذلك مما أردت الاستقصاء بل التمثيل .

فإذا تخرج الطالب منها عرضنا عليه فروع الجامعة ، فإما اختار فرعاً منها حضرناه له فى سنتين أو ثلاث ، علمناه فيه ما يتصل به ، فيكون فى كل كلية قسم تحضيرى فيه من العلو ما يحتاجه طالبها ، فيتلقاها الطالب برغبة فيها وحب لها لأنه هو الذى اختارها ، ووافقت هواه ، وظهر له النفع منها ، وينجو بذلك من خلق شاعراً من حفظ طلاسم الرياضيات ، أو الرسوم دونها والانقطاع عن المدرسة وحرمانه التحصيل من أجلها ، وهو من بعد لا يحتاج إليها أبداً ، ولايتعلم كل طالب إلا ما يحتاج إليه مع اختصار مدة الدراسة وتقوية الاختصاص ، وكسب الوقت الذى يستطاع الاستفادة منه فى تقوية الأجسام بالرياضة ، ومعرفة الوطن بالسياحات ، والعناية بالتربية الخلقية والوطنية ... ومن شأن بعدُ الاكتفاء بالدراسة الثانوية ودخول معركة الحياة لم نسأ وقته وسلحناه بثقافة عامة يعلو بها مستوى السوقة وأصحاب المهن ومن أراد التخصص فتحنا له بابه ، وعجلنا له دخوله وقوينا فيه وهذا إيجاز للاقتراح والشرح حاضر إن احتاج إليه القراء .

أما التعليم الدينى فلنعد فيه إلى مثل الطريقة الأزهرية الأولى

---

(١) وهنا مسألة مهمة جداً لا أعلم أحداً نبه عليها أو انتبه لها هى أن تاريخنا السياسى الذى يدرس الآن فى مدارسنا سلسلة فضائع انقسام إلى ثورات إلى قتل إلى استبداد . حاله فى ذلك كحال تواريخ الأ كلها ، وإذا استثنيت أمثال العمرين وثالثهما ابن عبد العزيز ونور الد وصلاح الدين لم تجد من الملوك من تصلح سيرته لتكون قدوة ، والتاريخ المظلم الذى يجب تدريسه هو تاريخنا العلمى الفياض بالمكارم والمفاخر ولذلك عنى علماؤنا بتراجم الأفذاذ أكثر من عنايتهم بالتاريخ العام . و العلماء من أثر فى عصره أبلغ الأثر حتى وجب أن ننسب العصر إليه لا خليفة الوقت كأحمد بن حنبل والغزالى وابن تيمية . هذا بعد أن يدرس تلميذ تاريخ بلده الذى يعيش فيه . وإن من أقبح العيب ألا يعرف العا العربى أين تقع سرمن رأى وماذا فيها الآن ، وإلام صارت الكوف وأن يعرف التلميذ الدمشقى تاريخ الثورة الفرنسية قبل أن يعرف من الفلمة وكم مرة احترق الأموى وأين أبواب دمشق ومن أنشأ حى الصالح